لَا تُؤْذِ

حِكَايَاتٌ عَنِ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ وَجِرَاحَةِ الدِّمَاغِ

تأليف

د. هنري مارش

ترجمة

د. مريم منصور

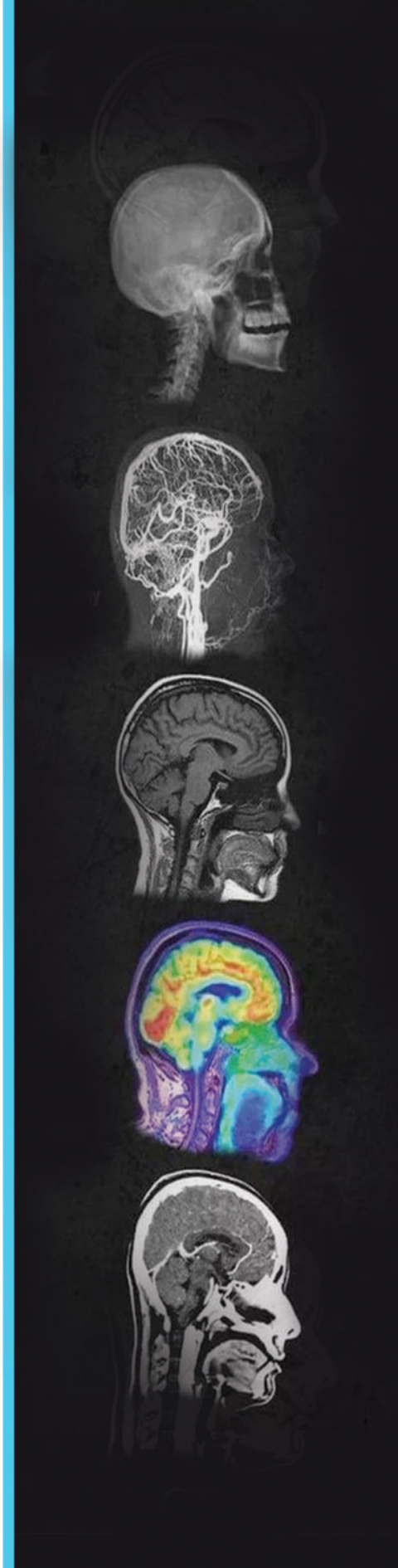

"كل جراح يحمل في داخله مقبرة صغيرة - حيث يذهب من وقت لآخر ليصلي - مكان مليء بالمرارة والندم، حيث يجب أن يبحث عن تفسير لإخفاقاته".

هل تخيلت يومًا أن تكون جراح أعصاب؟ كيف ستشعر وأنت تحمل دماغ إنسان بين يديك، وتقطع عبر النسيج الدقيق الذي يشكل الفكر والإحساس والمنطق؟ كيف ستتعايش مع عواقب إجراء عملية قد تنقذ مريضًا، أو تودي بحياته؟

عندما يؤدي الأطباء القسم الطبي، يتعهدون بأن "أبذلَ العلم لنفع الإنسان لا لأذاه." لكن في عالم جراحة المخ والأعصاب، يتداخل هذا العهد مع تحديات بالغة التعقيد، ففيه لا يمكن تجنب الأضرار دائمًا. إن عمليات جراحة الدماغ تحمل عواقب جسيمة، وتتطلب من الجراحين اتخاذ قرارات صعبة، محفوفة بالمخاطر.

يحكي الدكتور هنري مارش، ببلاغة مؤثرة وصدق لا متناهٍ، عن انتصارات مغموسة بمرارة الهزائم، وندم يثقل الروح، وكوميديا سوداء تجسد حياة جراح الأعصاب. يرسم صورة نابضة بالحياة لجراح لا يزال، رغم خبرته، إنسانًا يخطئ ويخاف.

> "يقر الأطباء أحيانًا بأخطائهم و(المضاعفات) فيما بينهم، لكنهم غالبًا ما يترددون في الاعتراف بها علنًا، خصوصًا في الأنظمة الصحية ذات الطبيعة التجارية والتنافسية. **هذا الكتاب يتناول الفشل كما يتناول النجاح**، لكنه ليس مجرد اعتراف، بل هو محاولة لتقديم رواية صادقة عما يعنيه أن تكون جراح أعصاب. ربما يكون استعدادي للاعتراف بأخطائي جزءاً من الطبع الإنجليزي، لكنني آمل أن تكون المشكلات التي أصفها مألوفة لدى الأطباء والمرضى على حد سواء. الكتاب يحمل أيضًا في طياته قصة حب متكاملة، ويوضح لماذا تُعد مهنة جراح الأعصاب هبة عظيمة، رغم الآلام الجسيمة التي تصاحبها".

هنري مارش، جراح أعصاب بارز في لندن، يعبّر في هذا الكتاب عن مسيرة مهنية طويلة وناجحة حيث أنقذ حياة العديد من المرضى، لكنه أيضًا ارتكب أخطاء جسيمة أدت إلى إضرار بعضهم وتدمير حياتهم إلى الأبد. يحكي هذا الكتاب قصصه وإخفاقاته، متذكرًا ما قاله له رئيسه ذات مرة:

"الجراح الناجح هو الذي يسامح نفسه على أخطائه، ولكنه لا ينساها أبدًا."

فهرس المحتويات

الموضـــــــوع	الصفحة
مقدمة المترجم.....	٩
مقدمة	١٣
ورم الغدة الصنوبريّة (Pineocytoma) ورم نادر، ينمو ببطء في الغدة الصنوبرية	١٥
الأنيورزم (Aneurysm)	٢٩
هايمانجيوبلاستوما أو الورم الوعائي (Haemangioblastoma) ورم في الدماغ أو الحبل الشوكي، ينشأ من الأوعية الدموية.....	٥٧
ميلودراما (Melodrama)	٧٣
تشنج مؤلم (Tic Douloureux) نوبات وجيزة من الألم الحاد والشديد الذي يُشعر به في فرع أو أكثر من فروع العصب الثلاثي التوائم في الوجه	٨٩
هلع دنو الموت (Angor animi) الإحساس بكونك في حالة احتضار، وهو يختلف عن الخوف من الموت أو الرغبة في الموت.	١٠٣
الورم السحائي (Meningioma) ورم حميد ينشأ من الغشاء	

عينة للقراءة

الموضـــــــوع	الصفحة

الليفي الذي يغطي الدماغ والحبل الشوكي. غالبًا ما يكون نموه بطيئًا، وتظهر الأعراض نتيجة الضغط على النسيج العصبي. ١١٧

ورم حليمى في الشبكية الوعائية (Choroid plexus papilloma) ورم حميد في الشبكية الوعائية، وهي بنية تتكون من مجموعة من الزُغبات داخل النظام البطيني للدماغ وتنتج السائل الدماغي الشوكي..... ١٤١

قطع الأعصاب البيضاء (Leucotomy) عملية جراحية يتم فيها قطع مسارات الألياف العصبية البيضاء في الدماغ؛ أشهر مثال على هذا النوع من العمليات هو استئصال الفص الجبهي المعروف باللوبوتومي..... ١٤٥

صدمة (Trauma) إصابة جسدية أو جرح. وفي علم النفس: حدث مؤلم وضار نفسيًّا. ١٥٧

ورم البطانة العصبية (Ependymoma) ورم دماغي ينشأ من الخلايا غير العصبية التي تبطن تجاويف بطينات الدماغ..... ١٧٣

جلايوبلاستوما (Glioblastoma) هو أكثر أنواع أورام الدماغ خباثة وعدوانية، وينشأ من الأنسجة غير العصبية ١٨٧

احتشاء (Infarct) منطقة صغيرة موضعية من الأنسجة الميتة ناتجة عن نقص في إمدادات الدم..... ١٩٩

تهتُّك العصب (Neurotmesis) التلف الكامل لعصب طرفي.

عينة القراءة

الموضـــــــوع	الصفحة
يستحيل معه التعافي التام لوظائفه	٢١١
ورم الأرومة النخاعية (Medulloblastoma) ورم خبيث في الدماغ يحدث خلال مرحلة الطفولة.....	٢٢٣
ورم الغدة النخامية (Adenoma) ورم حميد في الغدة النخامية.	٢٢٩
انصباب قَيْحِي (Empyema) تجمع القيح في تجويف في الجسم.	٢٣٥
سرطان (Carcinoma) هو نوع من الأورام الخبيثة، وخاصة الذي ينشأ في الأنسجة الظهارية.	٢٤٣
متلازمة الصمت الحركي (Akinetic mutism)	٢٥٣
التَّغَطْرُس (Hubris) كلمة في الأساطير اليونانية تعني كبرياء وتعجرف مفرط أو تحدٍّ للآلهة، مما يؤدي إلى العقاب.....	٢٦١
الفوتوبسيا (Photopsia) إحساس بوميض الضوء الناجم عن التحفيز الميكانيكي لشبكية العين.....	٢٧١
ورم نجمي (Astrocytoma) ورم دماغي ينشأ من خلايا غير عصبية تُعرف بالخلايا النجمية، ويمكن أن يتواجد بمختلف درجات الخباثة.....	٢٩١
التيروزين كاينيز (Tyrosine kinase) هو إنزيم يعمل كمفتاح تشغيل/إيقاف في العديد من الوظائف الخلوية. تُستخدم الأدوية التي تقلل من نشاطه، المعروفة بمثبطات التيروزين كاينيز أو TKIs، في علاج العديد من أنواع السرطان.	٣٠٣

عينة للقراءة

الموضـــــــوع	الصفحة

ورم الخلايا الدبقية قليلة التغصن (Oligodendroglioma) ورم في الجهاز العصبي المركزي..... ٣١٥

ألم فقدان الإحساس (Anaesthesia doloros) ألم شديد يحدث تلقائيًّا في منطقة فقدت الإحساس..... ٣٢٧

الشكر والتقدير..... ٣٤٧

عينة للقراءة

إلى كيت..

لولاها لما كان هذا الكتاب قد كُتِب

عبلة للقراءة

مقدمة المترجم

هل تخيلت يومًا أن تكون جراح أعصاب؟ كيف ستشعر وأنت تحمل دماغ إنسان بين يديك، وتقطع عبر النسيج الدقيق الذي يشكل الفكر والإحساس والمنطق؟ كيف ستتعايش مع عواقب إجراء عملية قد تنقذ مريضًا، أو تودي بحياته؟

عندما يؤدي الأطباء القسم الطبي، يتعهدون بأن "أبذلَ العلم لنفع الإنسان لا لأذاه". لكن في عالم جراحة المخ والأعصاب، يتداخل هذا العهد مع تحديات بالغة التعقيد، ففيه لا يمكن تجنب الأضرار دائمًا. إن عمليات جراحة الدماغ تحمل عواقب جسيمة، وتتطلب من الجراحين اتخاذ قرارات صعبة، محفوفة بالمخاطر.

يحكي الدكتور هنري مارش، ببلاغة مؤثرة وصدق لا متناهٍ، عن انتصارات مغموسة بمرارة الهزائم، وندم يثقل الروح، وكوميديا سوداء تجسد حياة جراح الأعصاب. يرسم صورة نابضة بالحياة لجراح لا يزال، رغم خبرته، إنسانًا يخطئ ويخاف.

هنري مارش، جراح أعصاب بارز في لندن، يعبّر في هذا الكتاب عن مسيرة مهنية طويلة وناجحة حيث أنقذ حياة العديد من المرضى، لكنه أيضًا ارتكب أخطاء جسيمة أدت إلى إضرار بعضهم وتدمير حياتهم إلى الأبد. يحكي هذا الكتاب قصصه وإخفاقاته، متذكرًا ما قاله له رئيسه ذات مرة: "الجراح الناجح هو الذي يسامح نفسه على أخطائه، ولكنه لا ينساها أبدًا".

د. مريم منصور

الإسكندرية - أكتوبر ٢٠٢٤

عينة للقراءة

«أولاً، لا تؤذِ...»

تنسب عادة إلى أبقراط، حوالي ٤٦٠ قبل الميلاد

"كل جراح يحمل في داخله مقبرة صغيرة، حيث يذهب من وقت لآخر ليصلي – مكان مليء بالمرارة والندم، حيث يجب أن يبحث عن تفسير لإخفاقاته".

رينيه ليريش،

فلسفة الجراحة، ١٩٥١

عينة للقراءة

مقدمة

على مدار مسيرتي المهنية، حظيت بفرصة العمل مع زملاء من الولايات المتحدة – أطباء جراحة الأعصاب المقيمين الذين يأتون للعمل لعام في قسمي بلندن كجزء من تدريبهم. لقد تعلمت الكثير منهم، وكما هو الحال مع العديد من البريطانيين الذين عملوا مع الأمريكيين، أُعجبت بتفاؤلهم وإيمانهم بأن أي مشكلة يمكن حلها بالعمل الجاد وتوفير الموارد الكافية. إضافة إلى ذلك، يعجبني الأسلوب الذي يُحتفى فيه بالنجاح ويُقدَّر دون أن يُثير الحسد، في تباين منعش مع التحفظات المعتادة لدى الإنجليز. ومع ذلك، عندما أزور المستشفيات الأمريكية وأشهد الإفراط في بعض جوانب العلاج، أتساءل ما إذا كان الأطباء والمرضى هناك يدركون أن المقولة الشهيرة "الموت اختياري في أمريكا" لم تكن سوى مزحة.

عملت أيضًا في دول مثل أوكرانيا والسودان، حيث أنظمة الرعاية الصحية أقل تطورًا بكثير مقارنة بالولايات المتحدة. ومع ذلك، تدرك بسرعة أنه بالرغم من الفجوة الكبيرة في المعدات والتكنولوجيا، تبقى العديد من الأمور متشابهة. فهشاشتنا وخوفنا من الموت آن المرض لا يعرفان حدودًا، والحاجة إلى الصدق واللطف من الأطباء – والصعوبة أحيانًا في تقديم ذلك – هي تجارب مشتركة بين كل البشر. آمل أن يكون المتدربون الأمريكيون قد استوعبوا هذه الحقيقة أثناء عملهم في إنجلترا، كما تعلمت أنا من تجربتي في الخارج.

عينة للقراءة

يقر الأطباء أحيانًا بأخطائهم و"المضاعفات" فيما بينهم، لكنهم غالبًا ما يترددون في الاعتراف بها علنًا، خصوصًا في الأنظمة الصحية ذات الطبيعة التجارية والتنافسية. هذا الكتاب يتناول الفشل كما يتناول النجاح، لكنه ليس مجرد اعتراف، بل هو محاولة لتقديم رواية صادقة عما يعنيه أن تكون جراح أعصاب. ربما يكون استعدادي للاعتراف بأخطائي جزءًا من الطبع الإنجليزي، لكنني آمل أن تكون المشكلات التي أصفها مألوفة لدى الأطباء والمرضى على حد سواء. الكتاب يحمل أيضًا في طياته قصة حب متكاملة، ويوضح لماذا تُعد مهنة جراح الأعصاب هبة عظيمة، رغم الآلام الجسيمة التي تصاحبها.

هنري مارش،

أغسطس ٢٠١٤

عينة للقراءة

١

ورم الغدة الصنوبريّة (Pineocytoma)

عينة للقراءة

ورم نادر، ينمو ببطء في الغدة الصنوبرية

أحيانًا أضطر إلى شق الدماغ، وهو شيء أكره القيام به.

باستخدام ملقط حراري، أعمل على تخثير الأوعية الدموية الرقيقة والمعقدة التي تغطي سطح الدماغ اللامع. ثم أُجري شقًّا صغيرًا بمشرط دقيق، وأفتح ثقبًا أدفع من خلاله باستخدام أداة شفط متناهية الدقة. نظرًا لأن قوام الدماغ يشبه الهلام أو الجيلي، تصبح الشفاطة الأداة الأساسية للجراح في هذه المرحلة. أنظر من خلال المجهر الجراحي، أتحسس طريقي للأسفل عبر المادة البيضاء الناعمة في الدماغ، باحثًا عن الورم. فكرة أن أداة الشفط تتحرك عبر الفكر ذاته، عبر العاطفة والعقل، وأن الذكريات والأحلام والتأملات كلها كامنة داخل هذا الجيلي، من الصعب جدًّا استيعابها. كل ما أمامي هو النسيج المادي، لكنني أدرك تمامًا أنه إذا انحرفت إلى منطقة خاطئة، إلى ما يُطلق عليه جراحو الأعصاب "الدماغ اللامع"، فسأجد نفسي أمام مريض يعاني من أضرار وعجز عندما أزور قسم الإفاقة بعد العملية لأرى نتائج عملي.

جراحة الدماغ خطيرة، وعلى الرغم من أن التكنولوجيا الحديثة قد ساهمت في

الشكر والتقدير

آمل أن يسامحني مرضاي وزملائي على كتابة هذا الكتاب. على الرغم من أن القصص التي سردتها كلها حقيقية، فقد قمت بتغيير العديد من التفاصيل للحفاظ على سرية المعلومات عند الضرورة. عندما نكون مرضى، يكون معاناتنا خاصة بنا وبعائلاتنا، ولكن بالنسبة للأطباء الذين يعتنون بنا، فهي مجرد واحدة من بين العديد من القصص المماثلة.

لقد تلقيت مساعدة كبيرة من وكيل أعمالي الحكيم، جوليان ألكسندر، ومحررتي الممتازة، بيه هيمينغ. كم سيكون الكتاب أسوأ بدون توجيههم! قرأ العديد من الأصدقاء مسودات الكتاب وأبدوا اقتراحات لا تقدر بثمن، وعلى وجه الخصوص، إريكا واغنر، وبولا ميلن، ورومان زولتوسكي، وأخي لورانس مارش. لم يكن جيفري سميث مسؤولًا فقط عن فيلم جميل وناجح عني وعن إيجور بعنوان "الجراح الإنجليزي"، بل لعب أيضًا دورًا مهمًّا في تطوير الكتاب.

على مدى سبعة وعشرين عامًا من عملي كاستشاري جراحة أعصاب، كنت محظوظًا لكون جايل طومسون سكرتيرتي، حيث لم يتفوق دعمها وكفاءتها واهتمامها بالمرضى على أي شخص آخر.

لم يكن الكتاب ليكتب أبدًا لولا الحب والنصيحة والتشجيع من زوجتي كيت، التي اقترحت أيضًا عنوانه، والذي أهديه لها.

عين للقراءة